المورد

مجلة تراثية نصف سنوية محكمة

- المجلد العشرون - العدد الاول - ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

WWW.ATTAWEEL.COM

الخيل اثناء الحروب الصليبية

دراسة

د. سلمان قطاية

باريس

كان معظم الصليبيين من فرنسا والمانيا وايطاليا ، والقليل جاؤوا من البلاد الاخرى . لذا اتعرض ببحثي عن الخيول التي كانت مستعملة في ذلك الزمان في تلك البلاد . ففي فرنسا كان الفرسان يمتطون صهوات اربعة انواع من الخيل كلها من المسماة بخيول الجرّ أو الخيول الثقيلة ، أولها وأهمها : البرشورون PERCHERON لأنه من مقاطعة البيرش ، واسمه هو النسبة الى تلك المقاطعة التي تضم حالياً اربع محافظات وهي السارت La Sarthe ، الاور واللواز e'Eure-et-Loire ، واللوار اي شير Le Loir-et-cher ، واخيراً الاورن L'Orne ، وكلها اسماء انهر تمر في تلك المناطق .

والواقع ان هذا النوع هو أجمل الخيول المسماة بخيل الجر حتى انه يقال عنه انه الحصان العربي فيما لو استمر في النمو ، ويعتقد البعض ان اجداد هذا الحصان امتزج دمهم بدم الخيول العربية اثناء الحروب الصليبية أو فيما بعدها حتى حصل على هذا الجمال وهذا الذكاء . ويتراوح ارتفاعه حتى الغارب من ١,٥٢م الى ١,٧٠م . والوانه محدودة فهو إما رمادي وهو الأغلب والأجمل وإما اسود مائل الى الرمادي ، وهو الحصان المستعمل عادةً لجر عربات ملوك اوروبا وبالأخص ملكة انجلترا .

وله ميزات جسدية خاصة تمكّن من التعرف عليه ، فهو ذو رأس ناعمة ، وجانب وجهي مستقيم . عيناه متباعدتان وذات نظرات ذكية . ومنخراه مفتوحتان جيداً علامة تحمل الجهد لجودة التنفس . عنقه قوي والقسم الأمامي من جسمه قوي ، صدره عريض . اما منظر الجسم كليةً فهو مكتمل ينم عن القوة . ساقاه معتدلتا الطول قاسيتان وذات عضلات بارزة . وتنتهي كل قائمة بكتلة من الشعر الذي يضفي عليها مسحة من الجمال والرشاقة .

ولكن رغم منظره الضخم الذي يوحي بالقساوة والخشونة والقوة فهو ذو رشاقة وجمال بسبب امتزاج دمه بالدم العربي .

وهو اليوم موجود في معظم بلاد العالم . ولقد صُدّر عام ١٨٣٩ الى امريكا الشمالية حيث اثار الاعجاب .

اما في بريطانيا فقد مزج مع الدم العربي من جديد بغية الحصول على حصان جيد للصيد ، أي سريع وقوي ، وهكذا تمكن البريطانيون من الحصول على ما يسمى بالصياد Hander ، وهو اليوم يستعمل في صيد الثعلب أو الخنزير البري .

ويتمتع البرشورون بصفات حسنة أهمها انه نشيط وذكي ولطيف للغاية ، وهو سهل القيادة ، ولا تتطلب تربيته أموالاً

كثيرة . لذا فهو افضل حصان جرّ وأكثرها استعمالاً .

ولقد صُدِّر منه حديثاً الى اليابان فابتكر هؤلاء سباقاً غريباً من نوعه ، إذ يقفون على زحافات يجرها الحصان على أرض محصّاة وذات تضاريس ، والفائز هو من يقطع المسافة في أقل وقت .

وتوجد منه انواع اخرى في محافظات فرنسية اخرى في الجنوب أو في الوسط . وللمحافظة والاعتناء بهذا النوع من الخيل اسس مربط البان Haras du Pin حيث تُرى فيه افضل هذا النوع . ويوجد مربط لكل نوع من الخيول ، وفي فرنسا يوجد منها ٢٣ ، اشهرها البان ومربط البومبادور للكرس للخيول العربية الأصيلة ، وكلها تابعة لوزارة الزراعة . وفيها ترى الذكور فقط وتشترى أفضلها ولو كلفت كثيراً . وفي كل مربط تُسجل انساب الخيل ، واليه يذهب مربو الخيل لسفاد الاناث لقاء مبلغ لا يتجاوز ١٠٠ فرنك فرنسي بالنسبة للبيرشورون . وتذهب الأموال الى صندوق مشترك يوزع على المرابط . ونظراً لشدة الاقبال فقد عُمِدَ الى التلقيح الصناعي .

ولقد اسس هذا المربط عام ١٦٦٢ ، وهو اجل مرابط فرنسا اطلاقاً ولم يبدأ بناؤه الفعلي الا عام ١٧١٥ ، ووضعت فيه الخيول عام ١٧٢٠ ، وقام برسم مخططاته مهندس قصر فرساي ومصمم حدائقها . ويُزار بشكل منتظم وله برنامج ضوء وصوت .

اما النوع الثاني فهو البولونية BOULONNAIS :

شبيه بالأول مع منظر اثقل وابطأ ، لكن رأسه اقرب الى العربي ، وألوانه أكثر تنوعاً . ولقد مزج دمه بدم اندلسي مما زاد في جماله . ويبدو انه قد جاء فرنسا من اوروبا الشمالية .

النوع الثالث : البروتون BRETON :

هو أقصر وأكثر ألواناً ، ولكن منظره أقل جمالاً وتوازناً ويبدو وكأنه كتلة مربعة . وفيه أربعة انواع ايضاً حسب منظره وعمله .

الرابع : كونتوا CONTOIS ، في الطرف الشرقي من فرنسا .

والخامس والأخير : بواتفان POITEVIN ، في الطرف الجنوبي .

خيل الجر الايطالية :

واشهرها المعروف في شمالي البلاد ووسطها والذي لا يتجاوز ارتفاعه الـ ١,٦٠م . واللون الغالب هو الأحمر مع ذنب وشعر أشقر الشيء الذي يمنحه جمالاً خاصةً وانه سريع الحركة نسبياً ، والتضاد الناجم عن شكله المربع الثقيل وحركته الرشيقة تجعله محبّباً ومرغوباً خاصةً اذا اضفنا جمال لونه وشقار الشعر والذنب وخصل الشعر على حوافره . ولكن منذ ظهور الآلة قلّ الاهتمام به ، واصبح يُربّى للذبح .

خيل الجر الالمانية :

وهو كبير الحجم ، عالي الغارب ، إذ يصل الى ١,٧٠م والوانه مختلفة اغلبها الأحمر ذو الشعر الأسود . اما شكله فهو ثقيل قوي كتلوي . والواقع انه قوي جداً رغم نظراته الناعسة . ولم يكن هذا الحصان بهذا الشكل الجميل نسبياً في العصور الوسطى ، ولكن ، بعد ادخال الدم العربي ، اتخذ هذا الشكل ، وذلك في القرن التاسع عشر . ويسمى ايضاً بحصان نهر الراين . إذ يوجد في المانيا نوع آخر هو الشليسفيج SCHLESWIG اصغر من الأول وأكثر لطفاً ونعومة من حيث الطباع .

والنوع الألماني الثالث هو البنزغاور نوريكر PINZ-GAUER Noriker ، قصير ، منقط احياناً . وموطن هذا الحصان هو منطقة بانزغاو ومن اسمه وهي واقعة في النمسا حالياً . وكان معروفاً لدى الرومان . ولقد حُسِّن نوعه خلال القرن السادس عشر وذلك بمزجه بالدم العربي . وهو قابل للعيش في الجبال ، لذا فقد كان معروفاً من القديم ومرغوباً بسبب ذلك .

وثمة نوع هنغاري وهو المواكوز MURAKOZ لان اصله من منطقة المورا MURA جنوب هنغاريا . ونوع آخر روسي ومنشأه في مقاطعة الاوكرانين (وعاصمتها كييف) .

اما انجلترا ففيها نوع يدعى السوفولك SUFFOLK ومنشأه المقاطعات الشرقية ويبلغ علو الغارب ١,٦٢م ، ولونه أحمر فقط ، لطيف وذكي ونشيط . ويبدو ان هذا الحصان هو حفيد الحصان الضخم الذي كان موجوداً في انجلترا في العصر

الوسيط ولكنه حُسِّن بالدم العربي ، إلا ان هذه الفكرة غير مؤكدة ، والغالب انه ظل كما كان . وتوجد انواع اخرى كالشاير Shire والكليديستال CLYDESDALE .

والخلاصة : ان الخيول التي استعملت من قبل الصليبيين كلها من نوع خيول الجرّ ، أو الخيول الثقيلة . والسبب في ذلك اعتماد الصليبيين على الحديد وتحويل الفارس الى قلعة حديدية محصّنة وثقيلة لذا كان من الضروري اعتماد الخيول القوية الثقيلة لحملها . وسبب آخر هو اعتماد القوة في الضرب وليس الخفة والحركة .

كان الحصان في فرنسا يساوي ٥ سو Sous وهو جزء من مئة التي تساوي ليرة واحدة Livre . ولكن وبسبب الحروب الصليبية سرعان ما ارتفع سعره الى ٥٠ سو عام ١١٣٠ ثم الى ثمانية ليرات عام ١٢١١ والى ٣٥ ليرة عام ١٢٣٠ .

وكان التكوين الاجتماعي لاوروبا يعرف طبقة لا مثيل لها ، واعلى طبقة هي طبقة الفرسان ، التي كانت تشكل الجنود المحترفين الذين لم يلبثوا أن أصبحوا يشكلون الأرستقراطية العسكرية . وكان ذلك مكلفاً للغاية . وكان كل هؤلاء الفرسان وفي اوروبا كلها يرتدون ويستعملون الأسلحة نفسها فكان اسمه في فرنسا CHEVALIER وفي اسبانيا CABALLERO وفي ألمانيا RITTER وفي جنوب فرنسا CAVER .

كان لباسه الحربي اللازم لخوض المعارك مؤلفاً من قميص جلدي أو قماشي مقوّى بحلقات ولويحات معدنية وهو ما يسمى بـ BROIGNE ثم اصبح قميصاً معدنياً ينزل حتى القدمين وهو المسمى HAUBERT وذلك حتى نهاية القرن الحادي عشر ميلادي ، اما اذا كان قصيراً حتى الركبتين ، ارتدى الفارس عندئذٍ جرابات زردية لحماية القدمين مع مهمازين حادين . ويغطي الرأس بزرد مماثل يحمي الرأس والنقرة ويبط حتى الكتفين مغطياً الكل ولا يدع حراً سوى العينين والأنف والفم .

وحين للمعركة كان الفارس يغطي رأسه ببيضة تدعى HEAUME من الفولاذ مخروطية الشكل تستمر في أمام بمصابة حتى آخر الأنف ، وتحيط بالرأس على شكل اطار فولاذي ، وتربط البيضة هذه بالقميص الزردي بشرائط جلدية .

ولم يظهر اللباس الحديدي الا في القرن الرابع عشر اي بعد نهاية الحروب الصليبية . واستمر حتى القرن السابع عشر . أما الدرع فكان من خشب وجلد موصولة ببعضها البعض بشرائط معدنية ، وفي وسطه حلقة من الحديد المذهب (Boucle ومنها اسم الدرع Bouclier) ، وتغير شكله : كان في البدء مستديراً فاصبح بيضوياً كبيراً حتى اصبح طويلاً يحمي الفارس على حصانه من رأسه الى قدمه . ولم تظهر الرسوم عليه والتي تشير الى عائلة الفارس الا في القرن السادس عشر . وكانت اسلحته : السيف وكان عريضاً وقصيراً وثقيلاً ، ذا قبضة مسطحة . والحربة : المصنوعة من الخشب وتنتهي بقطعة من الحديد معينيّة الشكل ، ثبّت عليها بمسامير شريط نسيجي مستطيل الشكل يرفرف في الهواء . اما الطرف الآخر فكان مدبباً حديدياً يمكّن من تثبيت الحربة في الأرض . وبسبب ذلك ، وخاصةً عندما اصبح الفارس يرتدي لباس الحديد ، كان وزنه ثقيلاً جداً يساوي ١٢٥ كغم ، ولوضعه على سرج حصانه كان المنجنيق هو الوسيلة الوحيدة ، وكان اذا سقط من على صهوة الحصان لا يستطيع حراكاً أبداً ، لهذا كان من الضروري استعمال حصان الجر . وكان لكل فارس حصانان الأول يدعى بالفروا PALFROI يركض ويحارب عليه ، والآخر يدعى ديكستريه DEXTRIER* ، يجره خادم الفارس ، وحين المعركة يعتلي الفارس الديكستريه بأن يوضع عليه بالمنجنيق ، ويمسك بالحربة .

ولكن وبسبب كلفة وارتفاع ثمن هذه الاسلحة ، كان البعض من الفرسان يرتدي البسة بسيطة واسلحة رخيصة ، فيرتدون الزرد القصير وقبعة زردية بسيطة ، ويحملون درعاً مستديراً صغيراً وسيفاً قصيراً وحربة قصيرة أو فأساً او قوساً ويمتطون صهوات جياد رخيصة . وكانوا يدعون ايكويّه ECUYERS ، أو التابعين .

وكان الفرسان يعاملونهم باحتقار . وفي أغنية رولان

---

* كلمة لاتينية تعني اليميني ، لأنه كان يعتليه من اليمين .

CHANSON de ROLAND الشهيرة تحدثنا هذه الاغنية عن احتقار الفرسان لهم . فكانت تحلق رؤوسهم تماماً ، ويعيشون بعيدين عن الفرسان ، ويأكلون خبزاً أسود . ولكن مع الأيام اتحدت الفئتان وشكلوا طبقة النبلاء NOBILIS التي تعني لغوياً الطبقة الأولى .

كان الفرسان لا يعملون في الأرض ، لأن ذلك كان محفوظاً لطبقة خاصة هي الفيلان Vilain ، ولأن النبل يمنعهم من ذلك (كذا) فكانوا يقضون الوقت في الصيد والتدرب على الأعمال الحربية . . . والنهب والسلب . تماماً كما كانت حال الانكشارية في البلاد العربية إبان الحكم العثماني . ولم يكن باستطاعة احد ان يكون فارساً إلا بعد تعليم خاص ونوع من الامتحان حتى ان الملك نفسه كان خاضعاً لهذه القاعدة . ويبدأ الشاب النبيل بتعلم ركوب الخيل ، واستعمال الاسلحة ، وصعود السلالم . اما في دار ابيه من ابيه اذا كان هذا نبيلاً أو من أي فارس آخر ، وكانت العادة ان يرسل الشاب الى فارس غني اخي من الأب ، فيأخذه هذا ويجعله ملازماً له (يور كما كانت عادة الاتراك) فيكون بمثابة الخادم تقريباً . وبعد خمسة اعوام أو سبعة يُسمّى الشاب اكوين أو داموازو Damaseau (سيد صغير) وبعد خمسة عشر أو ثمانية عشر عاماً يمنح الشاب لقب فارس بحفلة عسكرية رهيبة وقسم عظيم .

وخلاصة القول : كان الفارس الصليبي مع اسلحته ساعة المعركة يزن ١٢٥ الى ١٥٠ كغم ، على حصان مدرع ايضاً فيصل وزن الحصان الى ٦٠٠ كغم ، والكل الى ٧٥٠ كغم . وعندما كان يندفع تصبح ضربته بحربته الطويلة قاتلة جداً . . . اذا اصابت . . . وإلا ذهبت سدى . واذا استطاع العدو اسقاطه كان في ذلك هلاكه .

أما العرب فكان حصانهم الحصان العربي الأصيل .

واسلحتهم خفيفة : سيف منحنٍ حاد غير عريض ، وقبضة مستديرة ذات حاميين منحنيين الى أمام لحماية اليد . ودرع مستدير خشبي وجلدي ، وبيضة حديدية بيضوية الشكل وقميص زردي قصير . وليس للحصان أي درع واقٍ .

أما التكتيك الحربي عندهم فكان على العكس يعتمد على الحركة السريعة والخفة وقوة الضرب .

الحصان العربي : اصله ومنشؤه من الجزيرة العربية ، وهو اليوم منتشر في كل البلاد العالم ، بل ان منها من جعل لنفسه نوعاً خاصاً كالبولوني والهنغاري والروسي . يتميز بقصره فارتفاعه يتراوح من ١,٤٢ الى ١,٥١م . رغم ان هذا يختلف باختلاف الطقس والتغذية فمنه اليوم انواع كبيرة . الوانه متعددة وكثيرة ، ولكن العرب كانوا يفضلون الفرس (الانثى) الكميت (الأحمر) الأرثم (ذو الفم والأنف الأبيض) المحجل الثلاث المطلق اليمين .

ويوجد اليوم خبراء دوليون للتعرف على العربي واصالته ، وهو الحصان الوحيد الذي توجد له جمعية دولية خاصة W.A.H.O مركزها الولايات المتحدة الأميركية .

اما صفاته الجسمانية : الرأس : هرميّ قاعدته الى فوق ، الفم مدبّب الجبهة عريض ، العينان جميلتان سوداوان كبيرتان ذات اهداب سوداء طويلة ، قصبة الأنف مقعرة ، منخران مفتوحتان كبيرتان ، اذنان صغيرتان موجهتان الى أمام وسريعتا الحركة . العنق طويل ومنحنٍ . الكتفان قويتان ، الصدر عريض ، الجسم عامة مربع ومكتّل ومعضّل ، الكفل قوي عريض . الاطراف الأربعة ناعمة وطويلة ، الاوتار قوية وظاهرة ، الحوافر صغيرة وقاسية ، الجلد رقيق يشف عن الأوردة ، الشعر قصير ، الذنب : جذره صغير وهو دوماً بعيد عن الجسم ، وهو الحصان الوحيد الذي بامكانه رفع ذنبه كريشة نعام .

اما الصفات النفسية : فهو حساس ، ذكي جداً ، سريع جداً ، نبيل ، مخلص ، شهم ، وخاصة انه يتحمل المشاق .

وكان العرب يسرّجون خيولهم بسراج خفيف (جلد وقماش) له ظهر كي يريح الراكب اذا ما ظلّ فترة طويلة عليه . وفي ركابين قصيرتين اي ان الشريط الجلدي الذي يصلها بالسرج قصير والركاب عريضة وذات رأس وحشي مدبّب على شكل حربة صغيرة لطعن فرس العدو . والقاعدة عريضة ليتمكن الفارس من الوقوف ، والشريط قصير ليكون الفارس اذا وقف عالياً لضرب خصمه . أما العنان والرسن ، فالعنان قصير ليتمكن الفارس من التحكم بالفرس ، والرسن دون حكمّة حتى اذا اخذ العدو العنان بيده إنفك الرسن كليّةً

وهرب الفارس بفرسه ، ولم يستطع العدو أن يجرّه اليه .

والحصان العربي علاوة على سرعته فهو حساس جداً بمعنى ان إشارة بسيطة من فارسه تكفي لكي يتجاوب فيتحرك حسبها . كما انه شديد الصبر على الجوع والعطش ، ويكتفي القليل . وباستطاعته ، وهذا نادر ان يحمل على ظهره فارساً شديد الوزن ، رغم ان وزن العربي لا يجاوز ٢٥٠ كغم .

وله ايضاً خاصية رائعة لا توجد الا فيه : فباستطاعته وهو في أقصى جريه وباشارة من فارسه ان يدور ١٨٠ درجة وينطلق بالسرعة نفسها .

ولقد قام أحد العلماء الفرنسيين من اساتذة مدرسة سومور Saumur الفرنسية الشهيرة للفروسية في القرن الماضي بدراسة أكد فيها ان : الكرّ والفرّ ، تقنية عسكرية عربية خاصة وهي : يصطف الفرسان العرب على صف واحد في مهبط ارتفاع من الأرض منتظرين هجوم الفرسان الصليبيين الذين يأتون على خيولهم الثقيلة المحملة وعندما يصلون الى الصف العربي ويهمون بالضرب ، يدوّر العرب خيولهم ١٨٠ درجة بسرعة فائقة وينطلقون بأقصى سرعة فيلحق بهم الصليبيون نحو قمة الارتفاع ، ولكنهم لا يلبثون أن يتعبوا هم وخيولهم عندئذٍ يدوّر العرب خيولهم ١٨٠ درجة بسرعة فائقة تفاجيء العدو ويبدأون بضربهم بعد ان اتعبوهم فيتراجع الصليبيون مندحرين .

وكان بوشين استاذاً في مدرسة سومور ولا يحب الحصان العربي الذي طالما مدحه تلامذته العائدين من الجزائر بعد احتلالها من قبل الفرنسيين . فقال ذات يوم لأحدهم ، وماذا تفضّل في هذا الحصان ؟ فقال له : انظر .

وامتطى حصاناً عربياً وانطلق به بأقصى سرعة نحو جدار . . . وأمسك الحضور رعباً وهولاً ، ولكن ما ان وصل التلميذ قرب الحائط حتى أدار حصانه ١٨٠ درجة وانطلق بالسرعة نفسها حتى وصل الى استاذه فترجّل وقال له : هذا هو الحصان العربي .

المصادر

— LABAL Paul : " Le Siecle de Saint LOUIS ". Presse Universitaire de France Paris 1972 .

— SILVER Caroline : " Tous les Chevaux du Monde " Bordas Paris 1984 .

— TOEBOSCH , E. — MUSETTE J.P. : " Le Guide de l'Equitation " Bruxelles 1966 .

— LAROUSSE : " Connaissance des Chevaux " Paris 2 Vol . 1962 .

— BOGROS D. : " L'Hippologie Arabe " In Plaisire Equestres , Paris , 1979 .

— BOGROS & CREPIN : " L'Arabe le Plus Ancien Pur Sang " Crepin Paris , 1979 .

— PERON P. : " Le Livre des Deux Metiers " Paris , 1852 .

— DAUMAS D. : " Les Chevaux du Desert " Paris, 1851 , Re-edition 1966 .

— " Histoire du Peuple Francais " — Les Croisades 1958 .